

كحل: مجلة لأبحاث الجسد والجنس

مجلة ٢، عدد ١ (صيف ٢٠١٦)

جعل السادو - مازوخية ممارسة كويرية، فقدان التسميات: منهجية دائرية

بقلم لايدي جيا

١. إجعليني أقف في وسط الغرفة ومُريني بأن أبعاد ما بين رجليّ.
٢. إعصبي عينيّ واصفدي يديّ خلف ظهري بالأصفاذ الجلديّة.
٣. صفي لي ما أنتِ على وشك أن تعليه بي، وقولي لي أنّ بإمكانني الصراخ بقدر ما أشاء لكن من غير المسموح لي أن أتحرّك.
٤. ناديني عاهرةً واصفعي وجهي في كلّ مرّة أتأوّه فيها.
٥. إجلديني على ثديّ ومؤخّرتي وفخذيّ. ومرّري السوط على فَرْجِي بضع مرّات.
٦. إلمسي فَرْجِي وأخبريني كم أنا قذرة ورطبة.
٧. قولي لي أنّي بحاجةٍ إلى إذنٍ منك كي أبلغ النّشوة.
٨. إلمسيني حتّى أكاد أبلغ النّشوة، ثم توقّفي.
٩. كرّري ٥ و ٨ ثلاث مرّات.
١٠. ضعي سنّة ملاقط على كلّ ثديّ من ثديّي، وواحدًا على كلّ حلمة. خُذي الوقت لتمرّري أصابعك عليها.
١١. بسوط الرّكوب، إستهدفي كلّ ملقطة حتّى تتدلّى كلّها.
١٢. إلمسي فَرْجِي وادخليني بأصابعك في آنٍ معًا فوق السّرير، حتّى أرجوك أن تسمح لي ببلوغ النّشوة.
١٣. إجعليني أبلغ النّشوة في فمك.

الكلمة الآمنة هي "هوغورتنس" في حال احتجتها.

تلوّت الملاقط وقاومت، ثم استسلمت وتساقطت على الأرض واحدًا تلو الآخر، باستثناء ملقطةٍ خبيثٍ واحدٍ تفرّقعَ وغرس مسماره الحديديّ في لحم ثديي. فجأةً، غدت يداي حرّتين؛ صرت أرى من جديدٍ، وبدا نور الشّموع الخافت ساطعًا. نظرتُ إلى الجرح العميق المُدمى في صدري. "لماذا توقّفت؟" سألتُ. كان وجه شريكتي في الظلّ، لكن كان بإمكانني الشّعور بأنّ الجرح الفاجر في ثديي كان يغازل الحدّ الصّلب.

"هوغورتنس".

سرت الكلمة في الهواء كالكهرباء. نظفنا الجرح البالغ معًا وتركنا قطع الخشب المنشطية أرضًا.

أحببت الألم. أو بالأحرى، أحببت الألم عندما كان رضائيًا. لقد دفعني إلى حالة ذهنية هائلة تحولت فيها المتعة إلى خفة مظلمة. لم أحجم يومًا عن مشاعر الألم؛ لوقتٍ طويلٍ، كانت هذه المشاعر محورَ يوميّاتي، وكانت تروّعني قبل أن أتمكن من ترويضها. لاعبتها، ولعبت معها وحولها. حبستها أو تركتها تتدقق إلى جسدي في أمواج من اليأس. أخيرًا، الألم الذي لم يكن عنفًا أو انتهاكًا. الألم الذي كان بإمكانني التحكم به أو إيقافه بإرادتي. الألم الذي يمتع بدلًا من أن يؤذي. كنت حرةً في استعادته أو التخلي عنه. كان ألمًا سياسيًا.

المرة الأولى التي شاهدت فيها موادّ بورنوغرافية، كانت باستخدام الإنترنت البليد عبر الهاتف. وأعني بـ"شاهدت" أنني حملت العروض الدعائية للأفلام ثنائية بثانية وتقلت عبر معارض صورٍ لا تنتهي. كان هناك شيءٌ مزعجٌ بما يفوق الوصف في بورنوغرافيا الغيرية الجنسية المصممة لجمهورٍ من الذكور المنصّوين إلى معيارية الغيرية الجنسية. وجدتُ مشاهد الـ"gangbangs" مقلقةً بشكلٍ خاصّ. لم أكن أعرف ما إذا كان انزعاجي ناتجًا عن تموضّع الرجال وهمماتهم، أم عن تعابير وجه المرأة (الوحيدة) في المشهد. لدى استكشافي الفئات الواردة في القوائم على المواقع، بالترتيب الأبجدي، روّعتني وسومٌ مثل "عربي" و"آسيوي"، أو حتّى "cumshots"^٢ و"depththroat".^٣ ثمّ عثرتُ عليها، "S" متبوعة بـ"M" بالحرف الكبير، تفصل بين الحرفين علامة العطف "&". لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا يعنيه الحرفان، لكن ما إن حُمل المشهد المنقط الأول على شاشتي حتّى افنتنت به. صورةٌ تلو الأخرى من التقييد، والإذلال، والضرب بالعصي وبالسياط، والجلد، والملاعبة بالشّمع وتعذيب الحلمات. في سنّ الثالثة عشرة، كان الـBDSM^٤ حبيّ الأول، وقد نُيّمْتُ به قبل أن أتمكن حتّى من التعبير عن انجذابي إلى النساء.

^١ نوعٌ محدّد من البورنوغرافيا يتضمّن مضاجعةً جماعيةً لشخصٍ واحد/ة من قبل مجموعةٍ من الناس (الرجال في العادة).

^٢ يشير هذا المصطلح إلى قذف الرجل (أو عدّة رجال) على جزءٍ من جسد المرأة، كالوجه والتّدينين. في الـgangbangs، ينتهي الأمر بالمرأة مغطاةً بالمنّي.

^٣ نوعٌ من الجنس القموي العميق بحيث يُدخّل كامل القضيب تقريبًا في الفم.

^٤ اختصارٌ لـ"Bondage, Discipline and Sadoomasochism"، ويعني التقييد والتأديب والسادو - مازوخية.

في صيف عيد ميلادي العشرين، تعرّفت إلى مجتمعٍ من النساء الكويريّات. قصدتُ المكان مضطربةً، كابحةً حاجتي إلى قضم أظافري المدرّمة بعناية، وممسكةً بشنطة يدٍ مكسوّة بالريش تحت ذراعي. بلمحةٍ سريعةٍ تفقّدت هندامي. كنت قد ازدننتُ بما ظننتها ثيابًا جذّابةً: بلوزةٌ فيروزية اللون بعقدٍ من الخرزات الداكنة، أتممتها بصندلٍ ذي كعبٍ عالٍ. وبغضّ النظر عن القرقرات والنكات التي سمعت عمّا إذا كنت حقًا أعرف ماهيّة المكان، كانت "femme"^٥ الكلمة الأولى التي أعلمتُ أنها تمثّلني. ومع هذا الوسم، أتى التوقّع المضجّر بأن أكون دائمًا محلّ تودّدٍ، كامرأةٍ كويريّةٍ صالحةٍ تمرّ مرور النساء الغيريّات جنسيًا، وأن أدعّ المثليّات الـ "butch"^٦ يقمن بالمهمّة. لكنّي واعدت بطلاقةٍ وبوفرةٍ، وقد أكسبتني مغامراتي قصيرة العمر سمعةً سيئةً وشهورًا من التعبير. لسببٍ ما، ونظرًا إلى الهويّة الجندريّة المُسندة إليّ، لم أكن أعتبر "كويريّة" بما يكفي لكسر التابوهات المعيارية في لعبة الإغواء. كنت مستميتةً لأنسجم مع الجماعة، لذا تعلّمت الخضوع كآليّة للبقاء، إذ بدا أنّ وسمي "femme" و"خاضعة" يسيران يدًا بيد. وقد فشلت فشلًا ذريعًا في ذلك.

كامرأةٍ كويريّةٍ ذات مظهرٍ أنثويٍّ تمرّ مرور النساء الغيريّات، وتودّي الخضوع والجنس السّالب، لم أعرف كيف أفاوض على حدودي. مارست جنسًا ندمت عليه، كما مارست جنسًا سيئًا، وجنسًا شعرت به اغتصابًا لأنني بقيت صامتةً في وقتٍ أردت فيه أن أقول لا - أصحح، جنسًا كان اغتصابًا. ليس من أمرٍ عنيفٍ أو خاطئٍ في أن تكون المرأة امرأةً كويريّةً ذات مظهرٍ أنثويٍّ تمرّ مرور النساء الغيريّات، وتودّي الخضوع والجنس السّالب، كلّ تلك الصّفات معًا أو على حدة. لكنّ إرغامي على اعتناق تعبيرٍ وأداءٍ مبنيّين حصراً على مظهري الخارجيّ، كان عنفًا. وكذلك استبطاني هذه العمليّة وإعادة إنتاج نفسي كامرأةٍ كويريّةٍ ذات مظهرٍ أنثويٍّ تمرّ مرور النساء الغيريّات، وتودّي الخضوع والجنس السّالب، كان عنفًا موجّهًا ضدّ الذات. إكراهي على تقديم نفسي في ملابسٍ وحليٍّ أنثويّةٍ معياريةٍ كان عنفًا أيضًا. التتمّر والإسكات والتعبير الآتي من مساحةٍ "آمنة" للنساء الكويريّات كان عنفًا أضّر بي أكثر من أيّ عنفٍ آخر. وكذلك الجنس الذي مارست من دون أن أريده أو أن أستمتع به، كان ببساطةٍ إيذاءً للذات.

^٥ في مجتمعات المثليّات، يعكس هذا المصطلح التعبير الجندريّ لبعض المثليّات ممّن يعتمدن مظاهر وسلوكياتٍ تُعتبر تقليديًا أنثويّة.

^٦ في مجتمعات المثليّات، يعكس هذا المصطلح التعبير الجندريّ لبعض المثليّات ممّن يعتمدن مظاهر وسلوكياتٍ أكثر ذكورة.

إيذاء الذات لم يكن استخدامي أدوات العدة وأغراض المنزل كألعاب جنسية في خلال سنوات مراهقتي. إيذاء الذات لم يكن استخدام الملاقط وشموع البرافين التي كنت أسرقها من دلو الغسيل ثم من جارور عدة الطوارئ لدى انقطاع الكهرباء. ولم يكن إيذاء الذات إقفالي باب الحمام على نفسي بقدر ما كانت تتيح لي جرأتي، وافتراش بساط الحمام منفرجة الأطراف، ممسكة بالشّمة المشتعلة بيدٍ، وبملقطٍ يلسع لحمي بيدٍ أخرى. إيذاء الذات لم يكن الكدمات المنتجة للنشوة التي تركتها على جسدي وحلمتي والتي كنت أشعر بها لأيام تحت ملابسي.

الحجة الأكثر استهلاكا التي أسمعها من نسويات كويريات كثيرات عن الـBDSM، هي أنها ممارسة تحافظ على الوضع القائم من العنف الأبوي المرتكب بحق أجساد النساء. هذه المناجاة المتكررة مثقلة بالأحكام ومنخورة بالمعايير المزدوجة. أولاً، هي متواطئة مع الطرق الكثيرة التي يمارس فيها بعض الكويريين/ات أفعال العنف غير المرئية عبر التتمّر، والإسكات، وتصنيف الكويريين/ات الآخرين/ات، ووضعهم/ن في صناديق معيارية كالفemme/butch (المرأة/الرجل)، أو الكويري/ة "الحقيقي/ة" في مقابل الكويري/ة "غير الحقيقي/ة" تماماً. ثانياً، تحاول هذه المقاربة ضبط الرغبة والأفعال الجنسية الرضائية كما تفعل الأنظمة المعيارية الغيرية والمثلية الجنسية. والأكثر أهميةً وقبحاً، هو أنها ترفض تجاوز الافتراض السائد الذي يساوي قسراً بين الألم والعنف، وبين العنف والقمع.

العنف هو ما نختبره كتجربة عنيفة. نحن محاصرون/اتٍ بصور وحكايات أجسادٍ سمراءٍ أخرى تخضع للتحقيق، والإحتجاز، والتعذيب، والإغتصاب، والتهجير، والتشويه، والقتل والدفن في مقابر جماعية. ذاكرتنا الجماعية معجونة بالسرديات الصادمة لجغرافياتٍ مطحونةٍ بالحرب، وبصيرير الصواريخ غير البعيدة عنّا، وبالتسليح الممنهج والإخضاع القسريّ لأجساد ذات المظهر الأنثوي. إذاً، ماذا يعني أن ينخرط الكويريون/ات السمر/اوات في ممارسات الـBDSM؟ وماذا يعني أن ننسى أحجية الألم - العنف - القمع من دون تفخيم أو ذمّ؟

مستذكرة الأيام التي أردت فيها أن أنسجم مع الجماعة، مازلت أستطيع تصوّر المرات الكثيرة التي استلقيت فيها على الوسادة، أجول بنظري على الشقوق في سقف الغرفة، بينما تنفخ امرأة وتنفت حول فرجي الجاف بشكلٍ مثيرٍ للشفقة، لتنجح فقط في منحي بظراً متقرحاً في نهاية الأمر. أمّا أنا، فكنت أكبح تنهدي وشعوري بالذنب. كانت هذه معيارية المثلية الجنسية: كويريون/ات يخبرون/ يخبرن كويريين/ات آخرين/ات أنه لا يمكننا أن نجب ونُحبّ خارج سياسات الإحترام، لذا علينا أن نجب ونُحبّ باحترام، ويُفترض بنا الإستمتاع في خلال العملية، حتّى وإن انطلقت من إرغامنا على اتباع أشكالٍ معيّنة من التعبير الجنسي. عندما تمكّنت أخيراً من تخطّي وسم "الخاضعة السالبة"، أصبحت مازوخية صلبة. في سياق ممارسة الـBDSM الرضائية والخاضعة للتفاوض - أو ببساطة ممارسة الـBDSM - صار ألّمي متعةً وانعتاقاً عائماً بحرية. توقفت عن التمييز بين الإصبع، والدildo، والسوط والملقاط، باستثناء ما يتعلّق بالشعور والحدة. تعرّضت للخنق، والبصاق، والعصّ، والصّفع، والتكّدم، والتبول، والتأديب، ولم أشعر مرّةً بالإنتهاك. لم أشعر مرّةً بحدودي تُتخطّى، وتعلّمت أخيراً أن أتكلّم عن الجنس الذي أردت ممارسته، بدايةً من خلال الكتابة عن تخيلاتني، وفي نهاية الأمر عبر أحاديث بالغة الصراحة، مهما بلغت غرابتها. مذكّك الحين، لم يظلل فرجي مرّةً جافاً بحالٍ يرثى لها.

لوقتٍ طويلٍ، تشاركتُ نكتةً مع صديقةٍ/ حبيبةٍ لي عن الـBDSM غير المنظمّ". كنت اخترعتُ المصطلح لأصّف تلك الصّفعات والصّربات والعصّات المتفرقة التي قد تجلب المتعة في لحظتها، من دون أن تقود إلى تراكمٍ فعلي. (وقعت إحدى هذه الصّفعات عن غير قصدٍ على صدغي متسببةً لي مؤقتاً بالدوار وفقدان البصر والسّمع في أذنٍ واحدة). بعد سنواتٍ من التردّد، قرّرت صديقتي/ حبيبتي أخيراً إختبار الـBDSM. هكذا، منحّتها تجربتها الحقيقية الأولى في الصّفع على المؤخرة. كنت أتوقّع جلسة صفعٍ خفيفةٍ؛ إذ في أحسن الأحوال، كنا لنكتشف ما إذا كانت سترغب في تحدّي حدودها قليلاً. وفي أسوأ الأحوال، فكرتُ يومها، كنا لنطلق النكات عن تجربتها الفاشلة مع الـBDSM. عندما طلبت رضاها في منتصف الطريق للإستمرار في صفعها، سألتني: "هل يمكنكِ صفعي بشكلٍ أقوى؟". كانت راحة كفي على وشك التقرّح، لكنني أطعت. بلغت النشوة في اللحظة التي لمستّها فيها. لم يكن قد سبق لي أن صفعت أحداً بتلك القوّة. "التراكم" قالت، "السّر كلّهُ في التراكم" الموجّه عبر راحة كفي.

أحببتُ الألم ومازلتُ أحبّه، أحياناً. لكنّ التراكم هو سيرورةٌ فكرية. الألم سياسيّ. مبتدئةٌ أخرى جمعتني بها علاقةٌ صاخبةٌ وقتذاك، طلبتُ إليّ تعريفها إلى الجنس المُلتوي. إستكشفتُ أصابعي جسدها، خادشةً جلدّها، ومعتصرةً ومجتذبةً حلمتيها بقوةٍ متزايدة. كنتُ أشعر بأنفاسها تزداد عمقاً تحت عصابة العينين. كان التراكم في داخلي، ينساب من أحشائي إلى رؤوس أصابعي، ومن ثمّ إلى جسدها. أبهجتني القوة التي تخلّت عنها بإرادتها. بعد شهرٍ من ذلك، كنتُ أصفحُ ثدييها بينما أضاجعها بقوةٍ، وقد غرقتُ صرخاتها في تجرّاتٍ من المتعة الكثيفة. يومذاك، وصفتُ نشوتها بأنها كانت "نشوة ألم". أطلتُ السادية في داخلي برأسها.

لاحت فيّ التخيلات السادية مع لمحة سيطرة، ممسكةً بي، هوسيةً ومُقلقة. أخذتُ تطاردني وتحوم حول أكثر أنشطتي بساطةً. حاولتُ إبعاد أزمة الهوية المحدقة التي كانت تعتمل في ذهني، لاعتقادي بأنني استأصلتُ "الهوية" و"الأزمة" من كافة أطر عملٍ وصياغاتِ الذاتِ خاصتي. كنتُ أستمتع بتعاستي الجديدة، حتّى أغرتني بهدوءٍ وبغرابةٍ بجفنيها الثقيلين، وأغويتها أنا بالتحديق المقصود وبالملامسات غير المتعمدة نوعاً ما. إسترسلنا في الألم الجسديّ المشترك، لكنّ اليأس الشيق اندفع إلى كلّ نقطةٍ من الجلد المنسحق على الجلد، وكان ذلك مؤلماً. فتحتُ نفسها لي بتخلّ خجولٍ، ولم يكن مهمماً ما كنتُ أو من كنتُ في تلك اللحظة. تلامس جسداً وأذاًبا كلّ الوسوم والأدوار، فتتفستُ مع أنفاسها، بينما كان قلبي يخفق كالمطر المِدرار. كانت متعتهُ متعتي، ومانت همساتها على شفتي، نافخةً الحياة في رئتي. إنتشيتُ في دائرةٍ تامّة. في تلك الليلة، كانت هي المتعة والألم والمقاومة الكويرية التي ترددت كموجات الصوت في جسدي لأسابيع تلت.

هوغوورتس.

سرت الكلمة في الهواء كالقهرباء. جمعتُ أجزاءي المتشظية وأدنتها منّي.

تركنتها ترحل. كان الأمر سياسياً.